GHASSAN ZAQTAN

رواية

غسّان زقطان

وصف الماضي

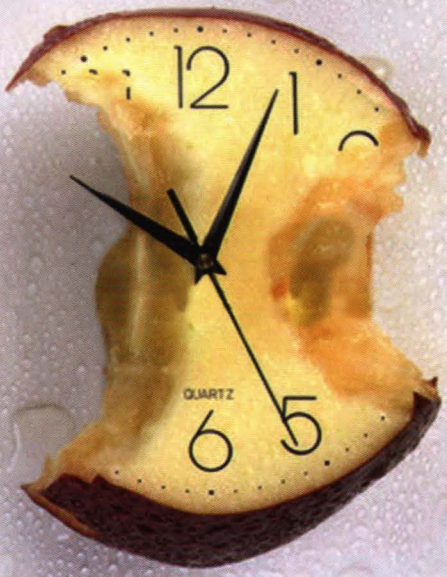

مكتبة نوميديا

الأهلية

وصف الماضي

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب : 7855 عمّان 11118 ، الأردنّ
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ،
بجانب البنك المركزيّ الأردنيّ ، مكتب القاصة ، بناية 34

◆

وصف الماضي / رواية عربيّة
غسّان زقطان / فلسطين

الطبعة العربيّة الثانية ، 2013
حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب 95297109 7 00962 ، الأردنّ
الصفّ الضوئي : إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف 079/5349156
الطباعة : دكو برس

***All rights reserved.** No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر .

زقط

غسّان زقطان

وصف الماضي

الأهلية

ظهيرة الشاي

قلت

: لم يكن سهلاً على الإطلاق، كان عليّ أن أعود، ثمة أشياء كثيرة لم يعد بالإمكان تأجيل إدراكها، مقاعد يجب الجلوس عليها وجبال يجب النظر بقوة في سفوحها وقممها، طرق ضيقة وواسعة ينبغي المشي فوقها، أيدي للمصافحة وكلام كثير للقول، تحايا ويد مجاورة بخمسة أصابع طيبة تحط على ركبتك فتصدق الكلام الذي في الهواء، طيور ترسلها للآخرين حمام وبلابل وصقور ودوريات.

أشياء من نوع «صباح الخير» و«مساء الخير» و«السلام عليكم».

وقبل كل شيء أن أراها.

كان هذا كافياً ومقنعاً إلى أبعد حد، لهذا عدت ومباشرة كنت أتجه نحوها تقودني رائحتها ويأخذني أنها «هناك»، فيما مضى كنت أذهب إلى حيث لا تكون، إلى ما هو أبعد منها، خلفها أو أمامها، بحيث لا يصل صوتها إلى جسدي، أو رائحتها إلى أصابعي، وفيما أنا في ذلك الذهاب

كانت أصابعها القصيرة الخشنة تلمع في معصمي وكان هناك دائماً الأثر الآسر للخاتم الرخيص الذي كان في إصبعها تلك الليلة، كان سيبقى هناك لامعاً وحارقاً وستبقى يدي منذ تلك اللحظة في الخسارة وجسدي في الغياب، وكان عليّ أن أحرر يدي وجسدي من كل ذلك.

لقد أخبرتك، بدأت مبكراً، قبل الوقت، هي خسارتي وهي تعرف وهي غيابي وهي تعرف أيضاً.

قلت له ذلك قبل أن يغرق، هل أخبرتك أنه غرق؟ حسناً لقد غرق.

وقبل أن نبكيه معاً أنا وهي وقبل أن أبكيه وحدي هناك وقبل أن أبكيها وأبكيه بينما هي نائمة، وقبل أن تبكينا معاً هو وأنا.

قلت له «إنها تنام في الحوش شبه عارية» وقلت له أيضاً «إنني رأيتها بعيني».

وبعد أن حلفني أخبرته بالقصة كاملة، كان صامتاً ومستغرقاً، لم يكن يستمع، وبينما أنا أروي كان يرى وكنت أعرف أنه يرى:

«كانت البوابة مواربة وكنا عائدين من صلاة الفجر في الجامع، أبي والحاج وأنا، توقف الحاج وأبي، وعبر البوابة المواربة لمحت نومتها، كانت متمددة على المصطبة وقد دفعت عن ساقها الغطاء الخفيف وثنت ركبتها، لم يكن المشهد واضحاً تماماً في ذلك الغبش ولكنك تستطيع أن تواصله وأن تضيف إليه، وألاّ تتوقف عند نهايته المكشوفة، إذا أردت، أو إذا كنت تعرف وهذا أفضل».

في الليلة التالية كنا بانتظار نومتها، صبرنا أكثر من ثلاث ساعات بعد صلاة العشاء وساعة أخرى بعد أن نوست فتيلة المصباح ثم انطلقنا عبر السور لنحدق في جسدها الغامض الذي ينام في أقصى الغرفة هذه المرة بينما يرتفع شخير الحاج من الزاوية الأخرى التي لا نراها، ثم شعرت بأصابعها على رسغي، لم تكن أصابعها في البداية، كانت أصابع خشنة وقوية، فيما بعد أصبحت لها، وثب هو مثل قط عن السور القصير، وكنت أرتجف وهي تواصل ضغطها وكان تنفسها عالياً وثمة خاتم معدني تنغرس حوافه في الجلد، لم يكن خاتماً في البداية كان أشبه بآلة حادة ولكنه أصبح خاتماً فيما بعد.

: ما الذي جئتم تسرقونه من بيت الحاج يا نصراني؟

، هل أخبرتك أن لقبي هو النصراني؟

قلت: لا شيء.

: ماذا جئت تفعل إذن؟

قلت: لا شيء، لا شيء.

ثم صمتنا وبقيت أصابعها حول معصمي والخاتم ينغرس ببطء في اللحم، قلت وأنا أحدّق في الجسد النائم وقد تبدد كل شيء تماماً وبدا الحاج هناك في أقصى الغرفة ضئيلاً ومسالماً ونائماً، وبعيداً جداً.

: جئنا نتفرج عليك.

: وهل أنا فرجة يا نصراني؟

: والله جئنا نتفرج عليك وأنت نائمة.

، وكان الخاتم يشق اللحم وكنت أتألم.

أطلقت يدي فاندفعت عبر البوابة المواربة.

نبح كلب في الطريق وركض باتجاه الحقول، كان خائفاً أيضاً، فركضنا معاً متوازيين على طرفي الطريق، ثم اندفع هو داخل دغل قصب وبدأ نباحه يبتعد.

ثم قلت له كل شيء، وكنت أعرف أنه سيكون هناك وحده في تلك الزاوية من الحوش غداً أو بعد غد أو في أي وقت آخر، وكنت أرغب أن يحدث ذلك وأراه، كان الخيط ينسل من بين أصابعي ولم يعد لديّ القوة أو الرغبة في السيطرة عليه وكان، كما أخبرتك، يرى، وكنت أراه وحيداً معها هناك أو هناك معها، بالنسبة لي لم يكن الأمر سهلاً أما هو فالأمر مختلف.

... أنا رأيتها كاملة وكان ذلك مؤلماً، هل أخبرتك قبل الآن عن ذلك؟

أنا مضطر لأن أتحدّث الآن، أنت تعرف ضرورة ذلك هنا، الأشياء تتبدد وتموت عندما لا تجد من يتذكرها.

... ذهبت لأقترض حفنة من الشاي، أمي أرسلتني، قالت:

«اذهب واقترض حفنة شاي من بيت الحاج»، وأعطتني قرطاساً لأضع الشاي فيه، كانت لا تستطيع، أمي، أن تعيش يوماً واحداً بدون الشاي، قل لهم إننا سنعيد ذلك غداً السبت، أكملت أمي.

كان الباب مواراباً فدخلت، وكان المكان صامتاً وكنت أخشى البيوت الصامتة، بيوتنا ليست كذلك، الصمت يجعلني مرتبكاً ومتردداً، قلت لنفسي:

لا يوجد أحد، لقد ذهبا هي والحاج.

خفت أن أعود بدون الشاي، كانت أمي سترسلني إلى مكان آخر، مكان أبعد بالتأكيد لاقتراضه كان ضرورياً لها.

... وقفت محتاراً أحدّق في باب الغرفة حيث علقت ستارة، بطانية سوداء مبلولة ومنسولة من الأطراف، وكان الطقس حاراً كما تعرف، الشمس تبدأ قوية من الصباح عندنا، وشعرت بقدمي الحافيتين تحترقان فوق أرضية الإسمنت التي أصبحت مثل معدن ملتهب.

تقدّمت ونظرت عبر النسيج الخفيف المنسول كانت هناك في الداخل وحيدة وعارية وفي يدها قطعة من مرآة مكسورة، وكان شعرها مبلولاً وممشطاً لتوه وعلى الأرض مشط من العظم الأبيض، وكان شعرها أسود سواداً عجيباً، كانت واقفة عندما نظرت ثم جلست على الأرض وأسندت المرآة إلى الحائط أمامها تماماً، ثم عادت ووقفت بدون المرآة، واستدارت نحوي فتسمرت مكاني وأبصرت نهديها كاملين وبدأت أبكي.

كانت قدماي تحترقان ولم ترني، انحنت وتناولت المرآة ووضعتها في كوة الحائط، الكوة التي نضع فيها السراج، أسندتها إلى حافة الكوة، كانت تقف على رؤوس أصابعها، كانت قصيرة وممتلئة وسمراء، ثم استدارت مرة أخرى ولم ترني، اقتربت من البطانية ثم انحنت تحت عيني وكنت أسمع صوت تنفسها وأرتجف.

كانت تحت عيني تماماً الآن ولكنها لم ترني، عادت وهي تحمل فرشة الحاج، لا شك أنها للحاج، فرشة مخططة بخطوط عريضة وباهتة، ثنتها ثلاث ثنيات وصعدت فوقها، أصبحت في مواجهة المرآة.

كنت مسمّراً خلف النسيج وعيوني تسح وهي كانت هناك وظهرها العاري لي، كان جسدها يتلوى ويرتجف وكانت تتنهد بقوة، وتدفع بشفتيها في الكوة حيث المرآة، وكان شهيقها عالياً وعميقاً، كانت تتألم، ثم بدا لو أنها تبكي ثم صار بكاؤها نحيباً، لم يكن صوتها فهربت، لم أمسح دموعي، نسيت، نسيت ذلك تماماً، وركضت.

وكانت هناك، وما تزال خلفي، خلف البوابة، خلف البطانية المنسولة وخلف المرآة وخلف الحاج واقفة على الفرشة المخططة تنتحب، وحيدة عارية تحاول أن تخرج من المرآة لتقبل شفتيها.

وكنت أركض وأتعثّر في الزاروب وأبكي.

أنا لم أكن أستطيع، لم يكن سهلاً، أنا رأيتها كاملة كما أخبرتك، رأيتها كاملة وقاسية ووحيدة بهذا الشكل المخيف.

رغبة الصوت

قال

: لم أصدق في البداية، كانت همومه دائماً في مكان آخر، كان بعيداً ومنهكاً.

ثم فجأة بدأ يتحدّث، كنا في طريقنا إلى «الشريعة»(*)، وكانت الشمس في الضحى حارة وجافة وكنا نكاد نصل وبدأت التلال الجرداء تكتسي بأشجار «الطرفة» القصيرة وكنا ننحدر مع التلال وأشجار الطرفة وأسراب من طيور سوداء نحو النهر، والتلال تزداد انحداراً و«الطرفة» تَطْوَلْ والطيور السوداء تصرخ وتزداد عصبية، وكنت قد تخلصت من القميص وكانت رائحة الماء والطمي والأرض المظللة تشتد وتغمق وأصبح السير أكثر صعوبة في الهواء المحتشد وصوت جريان النهر السريع يفصل المكان برمته عن كل ما يجاوره، تخلصت من السروال وكنت سأندفع نحو الماء الذي لمع فجأة من نفق ضيق بين أشجار «الطرفة» عندما بدأ يحكي.

لم أصدّق في البداية، لم يكن صوته، ولكن خيطا من الوله كان يلمع هناك في الكلام، نهر عريض ومصطخب من الشهوة والخوف والاختلاس،

(*) في مناطق الأغوار يطلق على نهر الأردن اسم الشريعة.

ثم قليلاً قليلاً، مثل غبار يتراكم ببطء ولكن بتصميم وثقة بدأت تتجمع هناك في صوته إلى أن اكتملت، كانت تتضح وتقترب وكنت أراها كاملة في صوته ومستلقية وعارية، ومن بعيد تلمع ركبتها وثمة نقطة ضوء معتمة في جوف الكتلة تتكدّس وتلتفت وتتنفس، كنت هناك، وكنت أبصرها في صوته بوضوح لم يتحقق له هو، كانت في صوته أوضح وأكثر اكتمالاً مما شاهدها ورآها، وكان يروي وكنت أرى وهو يصف ولا يتوقف إلا لالتقاط أنفاسه ويستمر في الوصف، كان يركض في كل أنحائها ومن هناك من مشهدها يبعث برسائله إليّ وكان يمنحها معجزة جديدة في كل مرة، وكان النهر أمامنا الآن يثب مثل مهر مبتعداً عن القطيع، وكنت عارياً تماماً.

لم أكن قد انتبهت إليها من قبل، كانت أكبر منا، وبعيدة ومنزوية وملتفة دائماً بملابس غريبة، لا شك أنها لأمها المتوفاة، ملابس قديمة، يتجدد قدمها في كل مرة ترتديها، ملابس ثم التصرف بها أكثر من مرة، ولم تكن مهتمة على الإطلاق، كانت منسحبة ومتراجعة بشكل كامل، متحصنة ومختفية داخل بشرتها السمراء الغامقة، ولم تكن راغبة في أن تكون مهمة، ولم تكن تبذل جهداً لتكون كذلك، لم يكن ممكناً، لم أكن لأستطيع، في ذلك الحين، أن أتذكر عينيها أو رموشها أو شفتيها أو أنفها، كنت أعرف مشيتها، كتلتها، وأتذكّر بقوة دخولها بوابة بيتهم المواربة دائماً، كانت تنزلق في المساحة المفتوحة متوازية مع الباب دون أن تلتفت وهناك تختفي تماماً، وكأنها تذوب بمجرد ملامسة هواء البيت، كان بيتهما صامتاً ومهجوراً بطريقة مذهلة، لم يكونا ليتحركا معاً، هي والحاج، وكأنهما قسما بينهما بصمت قوة التحرّك والانحناء والمشي في ذلك الهواء.

أو كأن مخلوقات غامضة غير مرئية تقوم على ترتيب كل شيء لهما، الطعام والغسيل والنوم والكلام.

مرة أو مرتين دخلت لأسباب لم أعد أذكرها، ربما لأحضر كرة أو شيء من هذا القبيل، إننا ننسى هنا، سأحاول أن أتذكر ذلك فيما بعد.

كانت الغرفة الوحيدة مشرعة ومرتبة ونظيفة بشكل عجيب ولم يكن هناك أحياء، لقد أنهت تلك المخلوقات مهمتها وعادت إلى غيابها.

... مشيتها، مشيتها فقط، هكذا أبدأ عندما أتذكرها، ثم كتلة قصيرة مغلقة ومشدودة تتلاشى بمجرد عبورها البوابة المواربة.

عندما كان يتحدث، كان يبصرها ويلمسها بصوته، الصوت، فضيحة الشيء وإدراكه الهائم، النبرة تصف وترسم وتمنح، وأنا رأيتها كاملة في صوته، كانت هناك بدون ثياب المرأة الميتة وبدون قساوة المشية، وبدون الحاج، كانت أمامهم جميعاً وكانت تحجبهم وتبعدهم بصمتها، فجأة وكما لمع النهر فجأة من النفق الضيق بين أشجار الطرفة لمعت هي في صوته ورأيتها هناك في أنحاء الصوت وانثناءاته تتعرى بهدوء وثقة وتتفتح أمامي، كانت وحيدة ومظلومة وقاسية ثم أحببتها بينما هي في صوته، وكنت أعرف أنها أكبر منا.

ولكنها أصبحت الآن، على حافة النهر تلك واضحة وآسرة.

وستبقى هناك معلقة في الهواء بين صوته وصفحة النهر موصوفة كما ينبغي لامرأة مثلها أن توصف.

شيء ما أيقظني

قالت

: استيقظت من النوم، ثمة من أيقظني، صوت أو نداء أو حركة غريبة أو يد بخمسة أصابع نحيلة ومجعدة.

ثمة من أيقظني.

كان المؤذن في نهاية دعائه ثم صمت كل شيء.

كان البيت خاوياً بدون أي سبب.

نظرت نحو فراشه كان لا يزال هناك، زحفت على ركبتي حتى وصلت إليه.

كان الفراغ يتزايد وكان ميتاً.

رددت الغطاء على وجهه وخرجت إلى العتبة حافية، كان الإمام قد بدأ الصلاة وكانت «آمين» تتفتح مثل مظلة عظيمة فوق البيوت.

كان الزقاق خالياً ومعتماً ورائحة الجوافة والبرتقال والنعناع القادمة من جهة النهر تجعل الهواء ثقيلاً جداً، فتحت قبة الثوب لأتنفس، لم تكن الفتحة كافية فمزقته حتى الخصر وتركت كل شيء للرائحة الكثيفة.

كنت وحيدة وحرة وصامتة والحاج في الداخل مغطى حتى جبهته.

تجمعت قطرات من الماء وبدأت تسيل بوثبات بطيئة مترددة، مثل أصابع صغيرة وحنونة ومشغوفة بالملامسة.

أغمضت عيني وغفوت على العتبة وكان الفراغ يتكاثر خلفي في الغرفة والحوش وفوق الحاج، ولم أستطع أن أفكر إلا بأن ثمة قطرات من الندى المشبع برائحة الفاكهة تتجمع على النهدين وتنحدر بينهما في خطوط مرتعشة.

كان الحاج ميتاً في الداخل.

الحاج الذي لم يكن غير ذلك، مسبحته الطويلة أيضاً ميتة، الحبات الزرقاء، الشقيقات التسع والتسعون ميتة، الأسرة بكامل أفرادها الحاج وأصابعه وحبات المسبحة.

لن أعود وأحسب من مكاني، أينما كنت، السنوات التي بيننا كلما حرك حباتها، أينما كان، السنوات الممتلئة بصمت عظيم.

ومن مكاني لمحت نخلات «أبو مشرف» العالية وميزت إناث النخل من أعذاقها.

مع بداية الضوء انتبهت، غادرت العتبة وعدت إلى الغرفة، كشفت الغطاء عن وجهه وقبّلت جبهته، كان هرماً، وكان كذلك منذ زمن بعيد، منذ وقت لم أعد أتذكره.

في السنوات الأخيرة لم أعد أنظر في وجهه، كنت أعرفه تماماً أحفظه وأراه وأردده مثل قراءة سورة الفاتحة غيباً، الإيقاع هو النواة بينما السورة

تندفع بآياتها السبع الحاسمة وحيدة بطاقة غامضة وبديهية نحو مقصدها ثم تتجمع واضحة ونقية ومحروسة في «أمين».

كان ضئيلاً وراضياً وميتاً وثمة خيط من الحياء يتلامع في وجهه، اعتذار، ربما، عن جهد سيحدثه بعد موته، جهد غير مقصود ولكنه ضروري، جهد أن أدرك أنه لم يعد موجوداً أيضاً.

كان هناك تماماً وكأنه يعيش، كما عاش على رؤوس أصابعه، كان يمر بمحاذاة الموت الآن، ليس فيه ولكن بمحاذاته كما كان يمر بمحاذاة الحياة بسيطاً وقليلاً وراضياً، وكأن ثمة ممراً ضيقاً، في ذلك الهواء انفتح من أجله هو ليعبر.

كان يبدو الآن مرتبكاً تماماً مثل تلك الأمسية عندما قال لأمي:

«أنت وحيدة يا حاجة وستضيع البنت بعدك،

زوّجيها لي على سنّة الله ورسوله،

تأكل وتشرب وتنستر،

وعندما أموت ستجد ما تعيش به وتكون قد فهمت الحياة».

ها هو ميت كما وعد،

ميت وصامت وعادل.

أغمضت عينيه وقبلتهما وأعدت الغطاء على وجهه وخرجت بعد أن لملمت ثوبي الممزّق، وكانت الشمس على وشك الاندفاع والهواء ساكن وثمة يوم قائظ آخر سيبدأ.

طرقت ثالث بوابة على اليمين، بيتكم، كنت أريد أن تكون أول من يعرف، وكنت أريد أن أقول لك:

مات الحاج.

وكنت أريد أن تحزن من كل قلبك من أجل ذلك.

كائنات مكشوفة
أجساد صامتة

قلت

: ... وقبل كل شيء كان عليّ أن أراها، فعدت.

كانت تصعد طريقاً ترابياً ضيقاً عندما وصلت، ووراءها النهر بعيداً ومرئياً ولامعاً وكانت مشيتها أكثر بطئاً وأكثر ثقلاً فبدت أقصر وكانت تترك خلفها غباراً دقيقاً وكأن الهواء ينحت جسدها أو ينفخ على بشرتها المشدودة فتتذرى كزوبعة صغيرة وحميمة بينما تحمل ولدها على صدرها، كانا قد تزوجا بعد موت الحاج وقد أنجبت، وكانت تحمل فوق رأسها سلة قش وهي متعبة وغائبة ومختفية تحت حمولاتها تلك ولم تكن تعلم ذلك، كانت دائماً لا تنتبه ولم تكن معنية بالانتباه وكان الطريق ضيقاً ومكشوفاً ومتربا ومستقيماً بشكل منهك ومستمر.

قلت: ناوليني الولد.

: إنه نائم.

كان صوتها يأتي متأنياً وهادئاً وعميقاً وبدون أي معنى ينحدر من بين تلك الحمولات مختلطاً بالقش والخضار وجسد الطفل وبدنها الخاص.

قلت: لا تخافي، أساعدك.

مددت يدي لأتناول الجسد الصغير المتكور وقربت هي صدرها كاملاً واصطدمت أصابعي بنهديها في مكانين وأحسست بارتجافتها كاملة عبر القميص الذي لا بد أنه له، كانت ترتدي الآن ملابس موتاها الثلاثة قميصه ومنديل أمها وحذاء الحاج.

لم يستيقظ الولد، واصل نومه بعد أن عدَّل تكوره ومدّ يده الصغيرة عبر القميص وبدأت أصابعه تجوس هناك تبحث عن زاوية للاتكاء وعندما يئس رضي بما وجده ونام، ثم شعرت أنني تركتها مكشوفة، ثم تأكدت دون أن أنظر أن صدرها بات الآن مكشوفاً وحياً وأن الجميع يحدقون فيه وأن ثمة غباراً يأتي من كل مكان من أجساد أخرى مجاورة وغير مرئية يأتي ويتجمع على نهديها، غبار قادم من عيون مذهولة وخائفة وكانت صامتة ومندفعة إلى جانبي بصدر مكشوف وحي.

وفي الجانب الآخر كان يمشي «هو» ميتاً وخلفه على الطريق الترابي خيط من ماء النهر ينقط من شعره وجسده وكان صامتاً وخلفنا الحاج، تمهلت قليلاً فتمهلا ليستطيع الحاج اللحاق بنا وكان صامتاً أيضاً، ثم واصلنا الصعود ونحن نحيط بها.

كنت ذاهباً لأموت كما أخبروني بينما هي لا تعرف وهما يعرفان، كنا ثلاثة أموات نحيط بها ونصعد في طريق ترابي ضيق ومستقيم وخلفنا النهر وهي بيننا بصدر مكشوف بينما الغبار يأتي ويتجمع، غبار برتقالي خفيف

يتراكم على نهديها وصدرها الحي وغبار أزرق يطير ويتبدد من كتفيها، وكانا ينظران فقط بينما أنا أحاول المحافظة على المكان برمته وهما فيه وكان الحاج قد لحق بنا فأوسعت له مكاناً بيني وبينها وتركته «هو» في الجانب الآخر وقد تضاعف خيط الماء المنحدر منه وكنت أسمع صوت مزراب وحيد في فضاء بارد، ماء يتساقط «هناك» منذ زمن بعيد، قبل أن نولد، منذ لا أعرف بالضبط وهو هناك يبعث تساقطه اليائس المتصل المتمهل.

قالت: أمرّ غداً وأرتب غرفتك.

كانت تعرف بدون شك.

قلت: لا تتعبي نفسك.

قالت بنفس الصوت الخارج مباشرة من البدن.

: أترك الباب مفتوحاً واذهب على المقهى أو المزارع إذا أحببت، إذن هي تعرف،

: كما تشائين.

قلت.

ثم دفعت صدرها المكشوف وكان النهر مكشوفاً خلفنا وأسرعت في مشيتها فأسرعنا نحن حراسها وأمواتها الثلاثة ومن حيث لا أستطيع أن أعرف كان الغبار يتنادى ويتجمع فوق والمزراب يتساقط، وحيداً وصابراً قلت

: لماذا لم تأت الحاجة؟

لم تسمعني ولم تجب ولم أعِد السؤال.

حكاية العراقي

قال

: عدت وحدي، دخلت من البوابة، كانت مواربة دائماً، في البداية سمعت شخير الحاج ثم رأيتها وهي تتجمع في أقصى الغرفة الشاحبة ثم أخذت تتجه نحوي، لم أتحرك من وقفتي ولم أكن ذاهباً إلى مكان آخر كنت ذاهباً إليها هنا، سألت من العتمة.

: النصراني... ؟

كانت تبحث عن «نعم» وحيدة وحاسمة، «نعم» كاملة بعشرة أصابع وعينين وفم، قلت من عتمتي.

: لا.

قالت: عد إلى البيت.

قلت: أي بيت؟

قالت: بيتكم.

بقيت واقفاً ومتحصناً في عتمتي وكانت تتقدّم نحوي.

: أنت ابن العراقي؟

«كان لقب العراقي قد التصق بعائلتنا في السنوات الأخيرة وكان عمي الأكبر هو الذي جلبه لنا نتيجة حديثه المستمر عن دوره في مساعدة كتائب الجيش العراقي التي شاركت في نهايات حرب 1948 في شمال الضفة الغربية، وكانت رواية عمي تقوم أساساً على أنه كان دليلاً لكتيبة مدفعية تمركزت في تلك المنطقة واستطاعت أن تغير مجرى الحرب هناك وأن تحمي قرى عديدة في ذلك القطاع، كما كان يحلو لعمي أن يسميه، من المذابح والتهجير والمسح التام وهو المصير الذي واجهته مئات القرى في ذلك العام في الساحل والجليل والقدس، وكان الجانب التاريخي المتعلّق بدور تلك الكتائب الخمس أو الست حقيقياً تماماً ويعرفه الجميع بل إن سكان تلك المناطق أقاموا على غير عادة نصباً للجنود العراقيين الذين قُتلوا في معارك ذلك الصيف وكانت الزهور تصل إلى النصب من أطراف وقرى صامتة في تلال تلك النواحي ومنحدراتها، زهور برية ودفلى وحنون وأغصان زيتون حملها فلاحون عبر دروب ضيقة من التراب والشوك.

وكانت تذكر تلك الأيام خبز بيوت كثيرة ورواية رجال كثيرين وذهبهم، ولكن الارتباك كان يبدأ بمجرد الحديث عن دور عمي في تلك الأنحاء، كانت الأسابيع القليلة التي قضاها مع كتيبة المدفعية تلك الشيء الوحيد الذي منحه رضاه عن حياة كاملة لم يرضَ عن معظمها.

وعندما كان يذهب بعيداً في الحكاية أو يشعر بعدم اقتناع الآخر، المستمع، كان يطعم الأحداث بمفردات من اللهجة العراقية تأتي إلى النص المروي بدهاء وتترك في الغالب أثراً مرضياً في ملامح السامع، أو يتذكر الضباط بأسمائهم المجردة، ولم يكن ليتطرق إطلاقاً للجنود، كان يتجاهلهم

بقسوة شديدة وملفتة وكأنما ليعزز مكانته الموصوفة بدقة في ثنايا الحكاية، رغم أن هذا التجاهل قد أثر تماماً على فكرة السامعين حول بنية الجيش العراقي وتشكيلاته أو على الأقل فيما يتعلق بكتيبة المدفعية تلك، إذ بدا أنها تتكون من عدد غامض من الضباط وأصحاب الرتب العالية وثمة أشباح غير واضحة تتحرك في الظلال لجنود باهتين بدون ملامح أو صفات، وقد أدى هذا التركيز الشديد على الضباط إلى إضاءة باهرة على بعضهم بحيث أن أسماءهم وصفاتهم ومواقعهم وسلوكهم أصبحت معروفة تماماً لدى الكثير من المداومين على الاستماع لحكايات عمي، فكان من الممكن تماماً وبدون أي جهد يذكر مشاهدة «أبو الجاسم»، وهي طريقة العراقيين في مناداة «محمد»، وهو يتسلق مثل الفهد الصخور ويتسلل عبر الممرات الصخرية وشجر الزعرور وشوك الجبل ليصل إلى أقرب نقطة ممكنة من مواقع الأعداء بحيث يسمع كلامهم ويشم رائحة شايهم، «وكان أبو الجاسم يعرف العبرية مثل اليهود وأحسن...»، يقول عمي ويصمت ويسرح ثم يحدق فينا ليتأكد من أثر ما قاله على وجوهنا.

ثمة ثغرات كثيرة جداً في تلك الروايات، ثغرات واسعة ومتجاورة ومؤلمة ولكن الرغبة الشديدة للمستمعين في تفكيك الحرب الخاسرة في تلك الأيام إلى بطولات صغيرة تحمل كل واحدة منها انتصارها الخاص والقدرة الخارقة التي كان يتمتع بها عمي في التأثير والقص والأداء جعل من الأحداث التي لا تجد من يؤكدها سواه حقيقة راسخة وحية ومن أولئك الضباط كائنات حية ومجاورة ومتداولة ومحبوبة.

ولكن ذروة الحكاية كانت تصل إلى تلك اللحظة التي بكى فيها «أبو الجاسم» بين يديّ عمي «ونهنه مثل النساء» لأنه «ماكو أوامر».

ورواية بكاء بعض الضباط العراقيين رواية موثقة ومعروفة جيداً في المنطقة وذلك عندما صدرت لهم الأوامر بالتوقف عن الاشتباك والتقدم نحو البحر والاكتفاء بالإنجازات التي تم إحرازها على الأرض دون أي تبرير مقنع لتلك الأوامر خاصة في مثل تلك الحرب التي كانت بدون شك حرباً مقدسة بالنسبة لهؤلاء الضباط.

ولكن المشكوك فيه تماماً أن يكون ذلك البكاء قد تم بين يدي عمي.

ومما كان يضعف هذه الرواية لدى بعض الخبثاء حقيقة أن عائلتنا لم تكن أساساً من تلك المنطقة إذ ننحدر نحن من مناطق تلية مشرفة على الساحل في الجنوب، وكان من الصعب تخيل رجلاً وُلد وعاش في الجنوب وهو يعمل دليلاً لكتيبة تدير عمليات عسكرية في الشمال.

كان واضحاً أنه اختار نقطة الانتصار الوحيدة في تلك الحرب العجيبة وقرر أن يكون شريكاً بها، ربما لأن الهزيمة ثقيلة ومفاجئة أكثر مما يحتمل أو يتوقع.

فيما بعد أصبحت المفردات العراقية تنتشر بشكل أوسع في حكاياته وكأنها مسامير صغيرة يحاول بواسطتها تثبيت تلك الأيام ورويداً رويداً تسللت بعض تلك المفردات إلى كلامه العادي ولهجته اليومية وأطلق اسماً عراقياً واضحاً على أحد أشقائي رغم تحفظ والدي وذهول أمي.

واستطاع خلال مرحلة لاحقة أن يقنع والدي بشراء جهاز راديو كان أحد الأجهزة القليلة في المخيم ولكن مؤشر ذلك الجهاز لم يكن ليتحرك عن موجة الإذاعة العراقية، كنا نستمع إلى الأخبار العراقية، أخبار

المحافظات واكتشافات النفط ومشاريع الكهرباء والماء وتعبيد الطرق والزراعة وبناء الجسور ومنسوب المياه في نهري دجلة والفرات ودرجات الحرارة في بغداد والبصرة وكركوك.

كانت الموسيقى في بيتنا موسيقى عراقية وكان ناظم الغزالي وزهور حسين وصديقة الملاّية أشخاصاً مألوفين في بيتنا الذي يصدح دائماً بغناء العراقيين، ثم بدأت تتسلل إلى حكايته خيوط غامضة من فكرة لم تتوضح بعد عن أصول عائلتنا المنحدرة من قبائل عراقية هاجرت منذ زمن غير محدد إلى فلسطين، وكان هذا الزمن يقترب كل يوم باتجاه بدايات القرن نحو أيامنا تلك.

كانت تلك الخيوط تتجمع إلى أن أصبحت رواية مجاورة لها طرقها وأسبابها وأحداثها ثم بدأ يعلن في أوقات متباعدة أنه يرغب في الذهاب إلى هناك فثمة أولاد عم يبحثون عنا دون جدوى ويسألون في أكثر من مكان، كانت رغبته في الذهاب إلى العراق تتزايد باستمرار وكان يوجه أسئلته لسائقي الشاحنات الكبيرة التي تقطع بادية الشام عابرة العراق نحو الكويت.

ثم تشكلت علاقات غريبة وعميقة مع هؤلاء السائقين وأصبح بعضهم يتردد على بيتنا، ثم بدأت تصلنا هدايا من هناك «من» و«سلوى» و«تمور» و«عسل التمر» و«بهارات» و«هيل» و«نومي بصرة»، كل هذا دون أن يتوقف عن إحاطة تلك الأسابيع القليلة مع كتيبة المدفعية بالرعاية... إلى أن اكتشفنا فجأة أننا بيت «العراقي»، ولم نعترض على ذلك إطلاقاً، كان وجود العراق كاملاً هناك غير بعيد بلاداً قوية واسعة وغامضة يمنحنا طمأنينة ورغبة عميقة في الذهاب يوماً ما، وكان عمي يغذي هذا الحلم ويعدنا جميعاً بالدراسة هناك.

عمي، لم يتزوج ولم يذهب للعراق ولكنه منحنا ذلك اللقب إلى الأبد، اللقب الذي نسبتني هي إليه تلك الليلة...».

قلت: نعم.

اقتربت وهي تتكلم في عيني، ولم تكن خائفة، كانت أنفاسها تصطدم بوجهي قالت:

: لماذا لا تذهب وتنتظر صديقك في الحارة؟

كانت قد أصبحت قريبة جداً، أمسكتها من أعلى مرفقيها، كنت في مثل قامتها، لبرهة تشنجت وشعرت بعضلات جسدها قوية ومتوترة تحت أصابعي، ولكنني واصلت الضغط هناك، ولم أكن قادراً على أن أفعل إلا ما كنت أفعله ولم يكن باستطاعتي أن أفلت يديها، وقد عرفت هي كل هذا، وفجأت تراخت، لم تضعف، اطمأنت، خف توتر عضلاتها وارتفع صوت تنفسها وحرّكت رقبتها بقوة.

ثم نظرت نحو الغرفة، كان شخير الحاج يصل إلينا، نترت ذراعها من بين أصابعي وأمسكتني من يدي، من المعصم بالضبط وسحبتني إلى زاوية الحوش، الزاوية البعيدة وكنت أمشي وراءها تسبقني يدي المأسورة، من هناك كنا نستطيع أن نتبين جسد الحاج الضئيل في الضوء الشاحب المنوس، ثم اصطدمت بصف من شجيرات ريحان فاندفعت من ذلك التماس رائحة نفاذة عزلت الزاوية عن بقية المكان.

قالت: لا تصدر صوتاً، أي صوت.

شهـود

قالت

: طرق الحاج البوابة بعد صلاة العشاء، استأذن ودلف بصحبة مأذون وشاهدين من أصدقائه، كنت في المطبخ وكانوا يجلسون على المصطبة وكانت أمي هناك، نهض المأذون وتوجه مع أمي والشاهدين نحو المطبخ عبر الحوش، في العتمة وقفت أمي، ودخل المأذون.

كان قصيراً وفوق كتفيه كنت ألمح الشاهدين، سألني إذا كنت أقبل الحاج زوجاً، كان متمهلاً وغير معني على الإطلاق، كان يشبه الحاج إلى درجة مذهلة، لم أستطع أن أجيب كنت أحدق بالشاهدين من فوق كتفيه كانا يشبهان الحاج وأنا في الضوء وأمي في العتمة.

قال المأذون: على بركة الله.

ثم استدار وتبعه الشاهدان ومن العتمة انضمت أمي إليهم، من مكاني كنت أرى الحاج يجلس على المصطبة وهو يواصل انحناءه ويمرر حبات المسبحة بين أصابعه، كان هناك على المصطبة منذ زمن بعيد جداً بانتظارهم وحيداً وضئيلاً وطيباً إلى أقصى حد.

صعد الأربعة الدرجتين نحو المصطبة حيث يتجمع الحاج، كان المأذون في المقدمة ثم الشاهدان ثم أمي.

قال صوت المأذون: مبروك يا حاج.

ثم سمعت صوت الشاهدين، ثم صوت أمي:

مبروك يا حاج، مبروك يا حاج.

لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق، كان الاتفاق قد تم قبل ذلك بأسبوع بين أمي والحاج وكنت أعرف.

كانا يتحدثون الآن في موضوع مختلف وكان الحاج يتكلم.

جئنا نتفرج عليك وأنت نائمة

قلت

: في الطريق من البيت إلى المقهى كان مشهد الحارات مختلفاً وكانت عيون الناس مختلفة أيضاً، ثمة شيء عميق وجديد يتخلل البصر والصوت، الأصوات تغيرت، موجات تنتقل بحذر ورعاية عبر الهواء نحوي وكأنها خائفة أن تصطدم بالجسد وتجرحه فيسيل الموت على ملابسي ويتدفق إلى الطريق، كنت أشعر بالملامسة الخفيفة الأقرب للاختلاس الطاهر التي تخلفها نظرات الحزن، وكانت «صباح الخير» أقرب إلى «رافقتك السلامة»، وكنت أشعر بالوخز المغري لنظرات الفضول، تلك التي تأتي مواربة ومحروسة برغبة غامضة لصاحبها، رغبة لا تخلو من شر.

توقفت ثلاث نساء وكادت إحداهن أن تبكي واحدة حيّتني بصوت مرتفع ومجروح، امرأة لا أعرفها نظرت إليّ طويلاً انصبت نظرتها في عيني، بالضبط في عيني، ثم فجأة هتفت وكأنها أبصرت أخيراً دلو الماء الذي تنتشله منذ سنة طويلة من عتمة بئر:

صباح الخير يا أستاذ.

وابتسمت الثالثة بتعب شديد وكأنها ستموت.

كنت أشعر أنني خرجت من الاتفاق تماماً، بدون إرادتهم وبدون إرادتي وأنني لم أعد هناك، كانت المرأة تقول «صباح الخير» لرجل ميت وصاحبتاها، التي كادت أن تبكي والتي ستموت، تراوحان النظر لرجل ميت، رجل خارج الاتفاق، خارج الملامة، وكان وجودي يزداد خفة وحركتي تزداد جرأة وعيناي تذهبان إلى حيث أريد.

الأولاد الذين تكوموا حول بعضهم أو فوق بعضهم على الدوار الوحيد لم يردوا على تحيتي وواصلوا التحديق في مشيتي، لم يسمعوا «صباح الخير» ولم يصدقوا يدي التي رفعتها لتسند «صباح الخير» تلك لتدلها عليهم أو لتدلّهم عليها.

الرجل صاحب محل الحلاقة، الحلاق، كان يبدو خائفاً ومتراجعاً في عمق دكانه وكانت عيناه تلمعان في الداخل وتتأهبان وكأنه ينتظر بفارغ الصبر، أو يرغب، أو يتوقع، أن يراني أسقط أو أتلاشى أو أختفي وأطير الآن.

قلت له أيضاً: صباح الخير.

فتمتم وانشغل وحرّك يديه وكأنه يخشى أن يصله صوتي الميت.

مؤجر الدراجات كان يقف بين صبيين يكرر على مسمعيهما وصايا خاصة بتقصير ما ارتكبه أحدهما، القصير ربما، لأنه كان يطأطئ رأسه بشكل لافت دون أن يمنع ذلك الرضوخ عينيه من التلامع وهما تسترقان النظر نحوي وقد اتسعتا وتلونتا.

قلت له ولهما: صباح الخير.

ولوحت بيدي لخيال وراء نافذة «العربجي» ولوح لي الخيال وراء النافذة.

تذكُّر أنها هناك الآن، معنى ذلك، قوة تواجدها والطاقة الغامضة التي تأتي من فكرة أنها تتحرك في غرفتي الآن كما هي وكما كانت بقميصه الباهت وخرق أمها وحذاء الحاج، بخطواتها القصيرة العنيدة تنشر عافيتها في الهواء وتنحني على الطاولة وتقلّب الكتب على الرف وتندم لأنها لا تستطيع القراءة.

... إنها هناك وحيدة مع كل تلك الأملاك الخاصة، والأشياء التي فكرت بها دائماً وتراجعت أمامها في كل مرة، الرغبات والنوايا التي تسبح في الهواء وتحيط بها الآن.

في الزاوية تركت فرشة صغيرة، فرشة مخططة وقطعة من مرآة كسرتها ليلة أمس، ألقيت أمام العتبة بطانية سوداء نسلت أطرافها بأصابعي، وفي الكوة مشط عظم أبيض، تقريباً كل ما ستحتاجه، أو كل ما عليها أن تحتاجه، وأبعدت كل ما يمكن أن يشغلني عن ذلك.

جلست على كرسي القش في المقهى صافياً وصامتاً وبكل ما استطعت من تركيز ذهبت إلى تلك الظهيرة قبل سنوات كثيرة، ومن كل كرسي قش قصير وبدون مساند رأيتها، استدارت ولم ترني وبكت ثم أصبح بكاؤها نحيباً عالياً سمعته من مكاني الجديد بينما كنت هناك مسمراً كتمثال مبصر خلف النسيج الخفيف للبطانية المنسولة، أحدّق في ظهرها اللامع العاري وشعرها بسواده العجيب وأسنان المشط الأبيض وهي مشغولة وبعيدة في المرآة وكنت أرى دائماً أصابعها القوية القصيرة الممتلئة المرنة المدربة.

... كان ذلك دون غيره هو ما أحتاجه الآن وما أفكر به وما لم أتوقف عن التفكير به دائماً وتدويره في حياة محدودة ومحاصرة، وهو ما يجعل الأمر بكليته محتملاً وقابلاً للتصديق.

بكرت في العودة، وقبل أن يغادر التلاميذ مدارسهم كنت أدفع بوابة البيت وأدلف إلى الحوش، في الداخل كانت اصابعها في كل مكان، على الملابس المعلقة بعناية على الحائط، وعلى الكتب والرف والنظارة التي لم أعد أستخدمها منذ زمن.

أصابعها القوية المرنة المدربة، على معصمي أيضاً واضحة ومطبوعة منذ تلك الليلة، فقط لأتأكد نظرت، فلمعت حول المعصم خمسة أصابع وأضاء خاتم رخيص مطلي بالفضة.

ثم سمعت صوتي في العتمة، هناك، مشروخاً، وخائفاً ووحيداً.

: والله جئنا نتفرج عليك وأنت نائمة.

جسدها لا يبصرني

قال

: كنت أقف بجانب شجرة السدر القصيرة، وكانت في أقصى الحوش، الأرض مبتلة هناك في الزاوية حيث نركن زير الماء وكانت تخضه وتقلبه لتفرغ الماء في حوض النعناع فتبتل أوراق الحبق وتهتز وتندفع الرائحة الخاصة النفاذة.

كنت سأخبرها أنني ذاهب للنهر مع عمر وأن عمر ينتظرني الآن عند نخلات أبو مشرف، لم تكن راضية عن ترددي إلى النهر مع عمر، عمر كان صديقي في ذلك الحين بعد ذهابه «هو» إلى حيث لا أدري، على أي حال كنا نشترك معاً عمر وأنا في فريق واحد في النادي وكان أفضلنا على الإطلاق، كان مصنوعاً بالضبط ليصبح بطلاً حقيقياً في رفع الأثقال، جسده وصمته، كان يخجل من صوته، قليلون تحدثوا مع عمر وسمعوا صوته لفترة كافية، وأنا منهم.

فجأة يبدأ بالكلام، عندما نكون وحدنا غالباً ونحن نهبط باتجاه الوادي الكبير نحو الحجر الكبير، كان الكلام في الهواء أمامنا وبيننا وكنت أجمعه بينما نحن نمشي وأعيد ترتيبه.

أنا كنت أحب صوت عمر، الأصوات تعنيني كثيراً، الصوت يدل على الشيء، الكيان الآخر المجاور والمتصل، وكان صوت عمر طيباً وخجولاً وثمة رعونة غامضة في مكان من طبقاته.

فيما بعد سيقتل شقيقته، كنت أقول إنني كنت أراقبها وهي تخض الزير في زاوية الحوش المبتلة، كانت ممتلئة في ذلك الحين ومشدودة داخل بشرة سمراء لامعة، وكانت تتنفس بصوت مرتفع يصل إليّ كاملاً ومحاطاً برائحة الحبق، وكنت أفكر بأصابعها أيضاً، أصابعها القصيرة، القوية، الخشنة، ثم رأيتها تقف في منتصف الحوش وترفع طرف ثوبها وتدسه تحت حزامها، ثم رأيتها تخض الزير من جديد، كانت مشغولة تماماً بعملها ذاك ومنصرفة إليها بجسدها كاملاً، حتى إنها لم ترني أقف عند السدرة بعينين مفتوحتين ووجه مدهوش.

وكان جسدها يتحرك بتتابع مثل أفعى قصيرة وممتلئة وكان ذلك يضيف لمعاناً إلى تفاصيل جسدها تحت الثوب المبلول الملتصق بها في أكثر من مكان، كانت قوية وكنت أحب قوتها، وكانت قادرة على بذل الجهد والاستغراق في الشيء، وكانت مرونتها تمنحها متعة تشع في بدنها وعينيها، كانت جميلة دائماً وآسرة عندما تعمل أو تتوتر وكان ذلك يمنحها تلك الفكرة التي يطلقها جسدها نحو الآخر، إن ثمة متعة في الطريق، وكنت لا أزال واقفاً دون أن أخبرها أنني سأذهب مع عمر إلى النهر بينما هي في الثلاثين مائلة للقصر بجسد قوي وعينين هائجتين لا تبصراني وكان ثوبها مبتلاً.

في مكان آخر ووقت آخر كان ثمة خيطان من الماء يسيلان من منبت شعرها المحلول، شعرها كان أسود عجيباً، الخيطان ما زالا يسيلان هناك ويتعرجان خلف أذنيها إلى صدرها حيث الممر العميق بين منبتي النهدين.

ثم لمحتني فجأة، أبصرتني، ثم ضحكت ولم يكن لكل ذلك معنى محدداً، ولكنني خفت.

سمعت البوابة تنغلق خلفها، قبل ذلك سمعت صوتها، ثم ذهبت إلى عمر، عمر الذي كان ينتظرني منذ وقت طويل تحت نخلات أبو مشرف.

آمـين

قالت

: انتقلنا إلى بيت الحاج، بعنا بيتنا لأحد أصدقاء الحاج ثم جاءت سيارة نقل صغيرة وحملنا كل ما لدينا، قطعت سيارة النقل النهر عبر جسر أليتبي ووصلت إلى هنا مع أمي.

أخذ الحاج ثمن البيت ووظفه في تجارة أمينة مع أحد أصدقائه وبدأنا نعيش، أولاً، في البيت الآخر قرب النهر حيث كان الحاج يسكن وحيداً بعد موت زوجته الأولى، ثم بدأ يبني هذا البيت القريب من الناس لكي لا أشعر بالوحدة هناك قرب النهر...

في الأيام الأولى كانت أمي تنام في المطبخ والحاج وأنا في الغرفة، كان هذا بعد صلاة العشاء، ولكن بمجرد بداية التسابيح قبل أذان الفجر كانا ينهضان كل من عتمته ويتجهان في الوقت نفسه نحو إبريقين من البلاستيك أخضر وأحمر، الأخضر للحاج والأحمر لأمي ويبدآن يومهما:

أصبحنا وأصبح الملك لله.

صباح الخير يا حاج.

صباح الخير يا حاجة.

يذهب الحاج أولاً، يحمل إبريقه الأخضر (ويذهب)، ثم تذهب أمي، تحمل إبريقها الأحمر (وتذهب)، يتوجه الحاج بعد ذلك للجامع وتصلي أمي على المصطبة، توجه السجادة الصغيرة للقبلة وتنوي بصوت مرتفع، ثم تسلم وتفتح يديها وتبدأ بالدعاء ثم تنهض وتلم سجادتها ثم تدخل الغرفة وترتب فراش الحاج وتحاذر أن توقظني، تذهب بعدها إلى المطبخ ومن هناك أسمعها وهي تشعل «الوابور» وتضع إبريق الشاي مبتدأة إعداد الفطور له ولها، وبمجرد أن تسمع خطواته وهي تشحط على أرضية الزاروب تحمل طبق القش إلى المصطبة، عندها يتنحنح الحاج على العتبة وتأذن له بالدخول.

تقبل الله يا حاج.
تقبل الله يا حاجة.

تدعوه للإفطار فيحلف عليها أن تشاركه ويفطران معاً، ثم يبدآن بالحديث، هناك بالضبط كنت أنتظرهما من مكاني، كانا يذهبان إلى كل شيء، تقريباً كل شيء، السياسة والدين والحياة والأرض والطقس والبلاد التي هجرا منها، يبدآن بوصف الجنة ويتذكران الموتى والقتلى وممرات الهجرة وشتلات الريحان الثلاث التي زرعتها أمي في زاوية الحوش.

كان الحاج يروي لها أحاديث الرسول والسيدة عائشة وحكايات الصحابة وبطولة علي وهي منصتة ومشدوهة أمام عالمه الواسع العجيب المتنوع، وكنت أسمع من نومي كل ذلك وأرى سيدنا علي وأنادي على أسماء ذات النطاقين أبصر جعفر الطيار بجناحيه وسلمان الفارسي وبلال الحبشي وآل ياسر.

ثم يبدأ الحاج بتلاوة سور من القرآن، كان صوت الحاج غريباً وعميقاً، كان يجلس متربعاً وتخشع أمي على طرف المصطبة غير بعيدة عنه وأسبح أنا في هواء مجاور وخفيف، بعد «صدق الله العظيم» يبدأ الحاج بالدعاء بصوت مختلف وكانت أمي تنتظره في نهاية الدعاء متمتمة من مكانها على المصطبة.

آمين.

وكنت أردد تحت الغطاء بإلحاح: آمين، آمين.

وعندما أستيقظ بعد شروق الشمس كنت ألمس تلاوة الحاج وأدعيته حولي وفي الهواء، أدعية بسيطة ونافذة.

كان الحاج يذكر زوجته الأولى بالخير دائماً وكانت كلمة «المرحومة» تعنيها دون غيرها من موتاه وموتى المسلمين، وكان يحب أن يتحدث عنها لأمي في جلساتهما الطويلة على المصطبة أو على عتبة البوابة في الأماسي بعد أن تكنس أمي العتبة وترش الماء على التراب أمامها ثم تحضر حصيرة قش قديمة تفردها أمام العتبة وتضع فوقها «جنبية» صغيرة ووسادة ليتكئ الحاج، بينما تجلس هي على العتبة نفسها وأجلس أنا إلى جوارها ورأسي على كتفها منصتة لصوته واستماعها حيث عالمهما السحري المأمون.

كانت أمي تحدث الحاج عن زوجها الأول، أبي، الذي قتله «الهاغانا» عام 1948، أخذوه كما تقول أمي، مع ستة شباب آخرين من سجن إنكليزي، ثم ساقوهم إلى أطراف البيارات وهناك ناولوا أصغرهم مجرفة وأجبروه على حفر حفرة مستطيلة وعندما انتهى أطلقوا عليه النار في حفرته.

ثم طلبوا من الباقين إهالة التراب عليه بأيديهم وعندما انتهوا ناولوا المجرفة للثاني، وهكذا حتى السابع الذي تركوه حياً بعد أن انتهى من حفر حفرته وأطلقوه في القرى ليروي.

أبي كان «الخامس» كما قال «السابع» فيما بعد.

في تلك الأيام، تقول أمي، كان كثيرون من ذلك «السابع» يتجولون في القرى ويجلسون على عيون الماء والبرك وحجارة الطرق، يروون حكايات مشابهة وأخرى مختلفة.

كانوا يأتون مجللين بالخوف والشيب ويندفعون نحو الشرق، يتذكر الحاج امرأة مرت على قريتهم في ذلك الصيف وكانت تصر أنها تحمل طفلها على يديها بينما تنادي الثاني الذي يسير خلفه ممسكاً بثوبها وتزجره، قال الحاج:

كنا نحدق في يديها الخاويتين وثوبها الممزق، ونستغفر الله، وكان شعرها بلون الثلج، فيما بعد عرفنا أنهم ذبحوا الولدين أمامها ثم أطلقوها لتروي في القرى.

وكان هناك قتلى كثيرون سنة 1948 في كل مكان، نساء ورجال وأولاد، قرى كاملة لها أسماء وصفات وذاكرة، انتهت وماتت، وكان هؤلاء جميعاً يأتون، وأبي أيضاً، إلى عتبتنا يتنفسون وينصتون.

وفي الفجر يخشعون كبقية البيت لتلاوة وأدعية الحاج ويرددون معي ومع أمي ومع شتلات الريحان الثلاث:

آمين... آمين.

غـرق

قال

: كنت مشغولاً بالصغير عندما دخلت، كان كلامها قليلاً، كلمات للحاجة القصوى فقط، اتجهت مباشرة نحو المطبخ، كانت صامتة وقوية ولم تكن قلقة، سمعت صوت اشتعال «الوابور» ثم الأصوات المتداخلة التي أعدت ترتيبها.

أولاً: ملأت «السخان» بالماء حتى أكثر من النصف بقليل.

ثانياً: وضعت «السخان» على «الوابور» ثم عدلت وضعه.

ثالثاً: اتجهت نحو الرفوف الخشبية ورتبت الأطباق.

عندما خرجت كانت تحمل صينية القش وعليها أطباق صغيرة فيها بصل وزيتون وزيت وزعتر وبندورة مقسمة إلى شرائح وخيار، وضعتها أمامي وقالت:

تعشى.

وقال

: كان صوتها آسراً ومفاجئاً، لم أستطع أن أتبين وجهها، ثمة ضوء يتخلل خصلات شعرها فيضيء كتفيها وتتسلل ظلال خفيفة منه إلى العنق...

كان «الوابور» يهدر في المطبخ، عبرت من جانبي، أحسست بها خفيفة، وفي يدها صرة ثياب وبطانية علقتها على باب المطبخ، ثم وصل صوتها وهي تبرد الماء في «السخان» بينما كانت تحاول التقاط لحن أغنية دارجة، لم يكن صوتها جميلاً عندما تغني رغم أنه يوحي بذلك وهي تتكلّم، استمر ارتطام «الطاسة» بجنبات «السخان» ثم صوت انكسار الماء على الأرضية الإسمنتية وحوض النحاس.

قال أيضاً:

: طار رذاذ بارد من شعرها ووصلت رائحة صابون عندما مرت بجانبي، في المطبخ لا بد أن كل شيء قد ترتب الآن، الأرضية نظيفة ولامعة وحوض النحاس مقلوب ومسند إلى الحائط، وثمة رائحتها، رائحة الجسد المشدود المغسول بصابون زيت الزيتون.

ثم أحسست بالخوف والأسى، مظلة من الفقدان الفادح، كان المكان الذي وصلت إليه عميقاً وغامراً، ولا أعرف كيف وصلت إلى هناك...!

بيت العربجي وابنته

قلت

: كنت قد أصبحت خفيفاً تماماً، الأشياء كانت تواصل تغيرها وكنت قادراً على اختراق المألوف والذهاب إلى أبعد منه، كنت خارج الاتفاق، مسامحاً تماماً ومحاطاً بمغفرة كافية تتكاثر.

وكنت قد بدأت أستمتع بكل هذا، وأعرف أن ثمة اتفاقاً جديداً قد تشكّل بيني وبينهم، وكان عليّ أن أموت قريباً من تلك الأيام وأن أحتمل في الوقت نفسه تلك النظرات بحمولتها كاملة المشفقة والفضولية والمدهوشة ومن بينها بدون شك عينيّ الحلاق.

- مساء الخير.

قلت لمؤجر الدراجات، من بعيد لمع الزيت على شعره ومن مسافة أقرب لمعت ثلاث أسنان ذهبية في فمه وعندما صرت بمحاذاته عبقت عطور كان يدلقها على شعره ووجهه ورقبته وصدره كيفما اتفق وفي لحظة تجاوزي له، بعد مساء الخير، لمحت تلك الخطوط الحمراء في عينيه، الآثار التي يتركها السهر والكحول عادة.

من داخل الحانوت ركض الولدان ووقفا يحدقان بي بانشداه.

كنت قد أصبحت في زقاق بيت العربجي ولمحت ابنته على النافذة.

منذ سنوات طويلة وأنا أرغب في الدخول، أكسر مشيتي وأثب على رؤوس أصابعي عندما أصبح بموازاة النافذة فأرى لوحة فواكه استوائية في أعلى الجدار، و«الله جل جلاله» بخط كوفي مذهب، فيما بعد كان يكفي أن أشد قامتي وأنتصب على رؤوس أصابعي لأرى، ثم تجاوزت قامتي ذلك وكنت أكتفي بالاقتراب من النافذة لأمسح بعيني في حركة سريعة الأثاث الغامض لتلك الغرفة، كان ذلك في نهايات المرحلة الإعدادية.

لا يختلف بيت العربجي عن بقية البيوت المجاورة، غرفة ومطبخ وسقيفة وحوش ضيق، نافذته الرئيسية منخفضة وتطل على الزقاق وقد غطيت بشبك معدني ناعم منعاً للناموس والبعوض في أشهر الصيف كما معظم النوافذ، إضافة إلى أنه، الشبك أو «المنخل» كما كنا نسميه، يحد من الرؤية أيضاً.

منذ أن وجدناه في هذا المكان، حين كنا صغاراً نعبث في كل شيء ونصدق كل شيء ونتعربش في كل شيء، استطاع بيت العربجي أن يكون خاصاً ومختلفاً ومرسوماً بدقة عجيبة مضافاً إليه دائماً العربة ذات الدولابين المائلة على الجدار بمحاذاة البوابة، وكان المكان المجاور جميعه منهمكاً بإدخال أثاث غريب إلى الغرفة.

وعبر البوابة وبعد الانعطاف الضروري لتفادي العربة كانت الأشياء تمر محدثة رنيناً خافتاً ومتصلاً يتراكم منذ ذلك الزمن البعيد، الزمن الذي كنا فيه صغاراً أو ما زلنا، حين كل شيء كان قابلاً للتصديق، كل ما

يروى تقريباً، وكان الجميع يتعاونون في ذلك وينقلون كل ما يستطيعون حمله وتزويقه بالرهبة والغموض والمرئيات والأحداث الغريبة ذات الشاهد الواحد، والبيت لا يرد شيئاً من كل ذلك، ويأخذ ما يصله، يتناوله من أيديهم ويضيفه إلى أملاكه وحكاياته وأثاثه، حتى بدا أقرب إلى بيوت السحرة منه إلى بيت عربجي أرمل له ابنة وحيدة.

كان البيت أيضاً خارج الاتفاق وكان مسامحاً ومحروساً باختلافه الضروري وبدا وجوده في تلك البقعة تحديداً بديهياً لاستمرار الأشياء المجاورة مثل بيت عمر المحاذي ومحل تأجير الدراجات على زاوية الزقاق والحلاق.

: تفضل يا أستاذ.

هتفت «بنت العربجي» من وراء المنخل وكنت قادماً فقط للدخول في هذا الكيان الذي بدا لي حميماً ومأموناً وكاملاً، نهضت الفتاة وراء المنخل ودارت إلى خارج الغرفة ثم ظهرت على البوابة وكررت بنفس اللهجة الأولى:

تفضل يا أستاذ.

كانت ترفع صوتها وتتجاوزني بعينيها باتجاه مؤجر الدراجات، دخلت من البوابة تاركاً ورائي الزقاق والعربة ذات الدولابين ثم باب الغرفة وجلست على مقعد خيزران وحيد قرب النافذة وراء المنخل، من هناك استطعت أن أرى جانباً من الشارع الرئيسي ومدخل الزقاق.

كان مؤجر الدراجات ينحني على درجة بثلاث عجلات، دراجة ضخمة وعجيبة، يحيط به صبيان وفي أيديهما وعلى الأرض وحولهما انتشرت عدة العمل، مفكات ومفاتيح إنكليزية من كل العيارات وبراغي وخرق.

كان صوت عبدالحليم حافظ يرتفع من هناك أيضاً حيث حانوت الحلاق.

في أعلى الجدار قريباً من السقف نسخة من لوحة زيتية لأنواع من الفاكهة الاستوائية، في بيتنا وتقريباً في الموضع نفسه صورة لعبدالقادر الحسيني مزنراً بأحزمة «الفشك» وعلى رأسه كوفية بيضاء.

على الجدار الآخر قطعة من الورق المقوى كتب عليها بخط كوفي مذهب «الله جل جلاله»، في بيتنا نسخة من رسم شعبي لسيدنا الخضر أو مار جرجس وهو يطعن التنين، وقريباً منها على طاولة من خشب بني غامق مجسم منحوت من خشب الزيتون للمشهد نفسه، وكانت أمي تجلس في ظلها تطرز وتبدأ بالغناء:

يا الخضر الأخضر

يا النبي داهود

تحرس هالأسمر

أبو عيون السود.

في زاوية الغرفة «كوميدينو» مدلل، خشبه البني الغامض يلمع وكأنه مُسح للتو بزيت الزيتون، على ظهره شرشف قصير ونظيف تزينت أطرافه بتخريمات مألوفة، وخلف الزجاج اصطف طقم من فناجين الشاي مزينة برسوم صينية في منتصفها إطار صغير مذهب في داخله صورة بالأبيض والأسود لامرأة تقف متكئة على عربة حنطور. المرأة التي في الصورة ترتدي فستاناً أسود بأكمام قصيرة وفتحة صدر مستطيلة.

شعر المرة كان مكوياً بتموجات الثلاثينات.

أشرت للصورة وقبل أن أسأل قالت:

هذه أمي يا أستاذ.

نهضت بهمة وتناولت الصورة من خلف الزجاج، ومسحت بظهر يدها غباراً لم يكن موجوداً، حدّقت في المرأة أولاً ثم ناولتني إياها.

المرأة خارج الصورة الآن، في البيت وفي الغرفة وفي ملامح البنت التي تجلس قبالتي، حية ومباشرة ومدللة، أما هو، «العربجي»، فلم أستطع أن أتتبع آثاره، حركته أو صوته في المكان، لم يكن هنا، كان البيت ملك الصورة، ملك المرأة التي هناك متكئة بدلال خاص على عربة حنطور بفستان أسود وشعر متموج.

بدأ الغبار يدخل من النافذة أولاً، غبار دقيق يتجمع على يدي وعلى الصورة على عنق الحصان وكتفي الفتاة وفوق لوحة الفاكهة الاستوائية وانحناءات الخط الكوفي، وهناك أيضاً كان يتراكم منذ زمن طويل على حربة مار جرجس وأحزمة الحسيني، وعلى خشب الطاولة الغامق وإبرة أمي وترنيمتها.

كنت أجلس في الشائعة تماماً، في نواتها، يتجمع غبارها عليّ ويتجمع على بلاط الساحة في الصورة، البلاط الذي كان يلمع قبل لحظات، الساحة المألوفة جداً.

قلت: أنتم من يافا؟

قالت: نعم، هذه الصورة أخذت هناك.

واستدركت، قبل الهجرة.

كانت مرتبكة وصامتة وقد موجت شعرها وارتدت ثوباً أسود بأكمام قصيرة وقبة تكشف مساحة مستطيلة من صدرها الشاحب.

على الزاوية كان مؤجر الدراجات يقرفص بين صبيين أحدهما وهو الطويل يصب على يديه الماء من إبريق بلاستيكي أصفر والآخر، القصير، يحمل منشفة وثمة طفل يبتعد على الدراجة العجيبة ذات العجلات الثلاث.

مقابله كان الحلاق ينفض منشفة على باب حانوته وهو يحدّق في النافذة حيث أجلس وراء المنخل وبين يديّ صورة المرأة التي من يافا وقبالتي تماماً خارج إطار الصورة المذهب تقف مرتبكة فتاة تشبهها، فتاة خرجت لتوها من الصورة، كنت أستطيع أن أجد لها مكاناً ملائماً إلى جانب المرأة من جهة الحصان، ولا شك أنها كانت هناك قبل أن آتي ولا شك أنها ستعود بمجرد أن أغادر الباب لتقف، كما كانت، إلى جانب أمها، كان يمكن أيضاً أن أجد مكاناً في أطراف الساحة لمؤجر الدراجات والصبيين وحانوت الحلاق.

قلت أيضاً لمؤجر الدراجات: مساء الخير.

كان قد انتهى من غسل يديه وتنشيفهما وقد جلس الآن على كرسي قش بدون مساند وأمامه تنكة مقلوبة وضع عليها صينية شاي وخلفه تماماً اتكأت على الحائط دراجات هوائية مختلفة الأحجام، ثم الحانوت الضيق المزدحم، ولا بد أن الصبيان الطويل بسرواله الأزرق المبقع بالزيت والشحمة والقصير بمريلته الطويلة مشغولان في الداخل، كعادتهما، بتصليح البناشر ورقع العجلات ونفخها وتزييت الجنازير وشدها على المسننات.

إضافة إلى بقية مهامها الكثيرة جداً في تلبية حاجات «المعلم»، شراء السجائر، ملاحقة الأولاد المتأخرين وتعيين ساعة الاستلام والتسليم وتسعيرة كل دراجة، وجلب الطلبات من المقهى، كانت هذه مهمة القصير غالباً، وربما كان هذا أيضاً سبب إصراره غير المفهوم على ارتداء تلك المريلة العجيبة.

كان الحلاق منهمكاً في قش ذقن أحد زبائنه، خمنت أنه حارس موتور الماء من المصباح اليدوي وقبعة القش العريضة على المقعد المجاور، كان الحلاق يهمس في أذن زبونه بشيء يتعلق بي، وكان يواصل ذلك بينما يتحاشى النظر نحوي للتمويه.

مساء الخير.

قلت للحلاق وواصلت طريقي نحو السوق.

تأكيد الصمت

قالت

: ثم أصبحنا ننام جميعاً في الغرفة، الحاج وأمي وأنا.

كان ذلك في الشتاء الثاني عندما دلف سقف المطبخ حيث تنام.

في البداية تكتمت أمي على الأمر واستمر ذلك لأسابيع إلى أن اكتشف الحاج الأمر ذات ظهيرة ماطرة، فطلب منها أن تنتقل إلى الغرفة بعد أن عاتبها عتاباً مريراً، مانعت في البداية ثم وافقت واكتمل رضاي.

ينام الحاج في أقصى الزاوية وننام أمي وأنا في الزاوية المقابلة تماماً.

بقينا كذلك إلى أن ماتت، مرضت ثلاثة أيام بلياليها، كانت تنتابها موجات من الحمى، قصيرة ومتتابعة والحاج إلى جانبها وأنا على العتبة، لم يغادر الحاج الغرفة خلالها إلا للصلاة أو للوضوء وأثناء زيارة الطبيب الذي كشف عليها ووصف لها دواء أحضره الحاج من «أريحا» بعد أن أوصى أحد أصدقائه.

كان خائفاً وضعيفاً ويبدو كمن استيقظ صباحاً ليجد أنه لا يعرف شيئاً، كان يحاول أن يتذكر، يعصر الغضون العميقة على جبهته وينكمش ليتمكن من المرور عبر نفق ضيق.

وكان لا يستطيع أن يفعل ذلك، وكان ذلك ضرورياً جداً بالنسبة له، ضروري لدرجة مخيفة.

كان يسقيها الماء والدواء ويغير الكمادات ويطعمها بيديه، وعندما لا يفعل ذلك يستمر في تلاوة القرآن بناءً على الرغبة التي تطلقها من عينيها، فيخشع كل شيء في البيت، الهواء والمصطبة وشجرة السدر في آخر الحوش والبوابة والسجادتين وأباريق الوضوء وحصيرة القش والمسبحة الطويلة في يده، وشتلات الريحان الثلاث وأنا.

فتغمض أمي عينيها وتذهب في غيبوبة جديدة.

في الليلة الأخيرة وبعد «الصافات» سمعتها تتمتم بكلام لم يصلني منه إلا اسمي، صمت الحاج بعدها طويلاً ثم سمعته هو هذه المرة ولكن بصوت غريب، صوت آخر، لم يكن صوته تماماً، صوت يمر خلاله ويتبدد في فضاء الغرفة فوقي وفوق أمي.

تشهّدي يا حاجة.

ثم سمعتها تتمتم بالشهادتين.

صمتت بعدها.

ثم تلى الحاج وكان يواصل صمتها.

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي...».

كان الحاج في تلاوته يؤكد الصمت ويبنيه.

ثم لم يوقظني، بقي جالساً قرب رأسها يرتّل بصوته الجديد حتى أشرقت الشمس.

لم يوقظني الحاج ولم أنم.

حافة لكل شيء تتقدم

قلت

: من بعيد، من تخوم النهر كانت الرائحة تأتي، رائحة الجوافة الثقيلة تحرث الهواء وتبدده لتتعلق فوقنا صافية ومبلولة، العتمة التي تركتها ورائي في الزواريب والحارات، عتمة البيوت المحتشدة بالألفة وأثار الناس ورائحتهم وتنفسهم ونومهم وحركة أجسادهم المتبقية في الظلال، الصدى الخافت غير المسموع لكلامهم معلّق ومنخفض ومتواري في الحركة الغامضة غير المرئية للعتمة.

انفتحت عتمة الناس والبيوت على عتمة ثانية الآن، عتمة مجاورة ومختلفة من الحقول المفرودة حتى حافة الماء في النهر، عتمة تمتلئ بتنفس النبات وخشة الثمار وهي تنمو وتتحرك، العتمة البرية المتوحشة حيث تلتمع عيون كلاب هائمة وأرض مرويّة، براري من الهواء البدائي تتلاحق وتتدافع وتقترب من بعضها البعض.

... : مساء الخير.

قلت للشرطي البدوي على دوار المخفر فارتبك وهتف:

من هناك؟

قلت وأنا أتجه نحو الضوء ليراني:

أنا.

فارتبك مرة ثانية وتمتم:

الليلة حر.

قلت: نعم.

وهبطت عائداً إلى البيت وخلفي كان الحلاق ينفض منشفته ومؤجر الدراجات يتبعه الصبيان الطويل يحمل تنكة مقلوبة والقصير يحمل صينية الشاي والشرطي وبنت العربجي في عربة حنطور يجرها تنين مطعون وتحت عجلات العربة دائماً بلاط حجري مغسول وثلاث نساء غريبات يركضن حافيات على البلاط استمرت الوسطى بينهن تصرخ:

: صباح الخير يا أستاذ، صباح الخير يا أستاذ، صباح الخير يا أستاذ.

على عتبات البيوت والجدران المنخفضة وقنوات الري والبرك، كان الميتون يجلسون بهدوء ويبتسمون تحت غبارهم وهم يحدّقون في مظاهرتي الصغيرة، كنت ذاهباً إليها حيثما كانت، ونبحت كلاب وكانت هناك رؤوس تظهر في العتمة تختفي بمجرد اكتمالها وأولاد ينبعون من بين أعواد القصب.

ومن بعيد ولكن في مدى النظر كان خط كثيف من العتمة يتقدّم، غبار في الطريق مثل حافة عظيمة لكل شيء.

سبحان الله

قالت

: فجر اليوم الثاني للدفن حملت له إفطاره للمصطبة، زيت وزعتر وزيتون وخبز وشاي، قبل أن يجلس ناداني وأشار لي أن أجلس فجلست قبالته، وكنا وحدنا للمرة الأولى، زوج وزوجة ولم تكن معنا، كنا بدونها، بدون حركتها الدائبة الصامتة المنصتة لكل شيء، قال:

لا تتعبي نفسك بعد الآن.

كان ينهض فجراً كما كل يوم وحيداً وخفيفاً وصامتاً، لم يعد يروي ولم أعد أرى، كان يقضي معظم وقته في المسجد، الصلوات الخمس كاملة، هناك يتوضأ ويلتقي بأصدقائه ويتابع تجارته البعيدة عن يديه يتفق ويأخذ ويعطي ويسامح.

كان الصمت يأتي من كل مكان ليحط بيننا، أجنحة غير مرئية تخفق في الهواء بيننا وفوقنا، الصمت يأتي من البوابة المواربة دائماً ومن الزقاق، والصمت من النافذة في أعلى جدار الغرفة والصمت من فوق سور الحوش القصير، غبار يتجه نحو بيتنا، يتنادى في براري بعيدة ويبدأ بالتطاير نحو

البيت حيث الحاج وأنا، لم يكن هناك سوانا، الآن، اختفى أولئك الناس الذين كان يأتي بهم إلى البيت في الفجر على المصطبة أو مساءً على العتبة، عادوا إلى قبورهم وأزمانهم، لم يبقَ إلا هو وأنا.

مرة ناداني، كان ذلك بعد موتها بأسبوع، كان يجلس على العتبة وكنت في الداخل، وأشار لي أن أجلس فجلست، صمت قليلاً ثم تمتم:

خير، اللهم اجعله خيراً.

أمس رأيت المرحومة في المنام.

اختلط عليّ الأمر في البداية، لم أعرف من يقصد بالمرحومة زوجته الأولى أو أمي.

قلت: أمي؟

: ... وأوصتني بك، سبحان الله، وكانت راضية وفي عمرك وشبابك.

كنت أريده أن يتكلم، وكنت أرغب أن أسمعه، فجأة رأيت أنني أحب صوته.

قلت: احكي لي يا حاج.

وأكملت...

: عن أسماء، أسماء بنت أبي بكر، أسماء ذات النطاقين.

صمت الحاج ثم تنحنح وقال:

صلي على النبي العربي.

: اللهم صلي وسلّم على سيدنا محمد

وبدأ الحاج يتكلم، وبدأ أنه يعاود الظهور بعد اختفاء طويل، بدا صوته متردداً، ثم قليلاً قليلاً اندفع داخل الحكاية وبعيداً جداً في الصحراء هناك، جوار مكة بدأت ملامح الصبية الصغيرة تتشكّل في فضاء متشابه ومحروس، أسماء تحمل خبز الرسول وتصعد نحو الغار حيث اختفى عن مطارديه.

قال الحاج:

تفكري في القدرة التي حمت النبي والرسالة، تفكري في القدرة

أولاً: العنكبوت وبيتها الواهي المنسوج في مدخل الغار، ثم الحمامتين اللتين بنتا عشّهما وهدأتا هناك.

وأخيراً الفتاة الصغيرة في مواجهة صحراء قاهرة وكفار أظلمت قلوبهم.

قلت: سبحان الله... !

حكاية النصراني

قلت

: كانت أمي امرأة مدبرة، وكانت تملأ حياتنا بنصائح ومواعظ لا مبرر لمعظمها، وتملأ بيتنا بأغراض متنوعة وأشياء كثيرة مجففة ومملحة ومحفوظة لا جدوى منها في نظرنا وأشياء مكومة على الأرضية تتعثر بها أقدامنا دائماً أو معلقة على السقف تصطدم بها وجوهنا وجباهنا أثناء تحركنا الدؤوب في الغرفتين الضيقتين.

كنت أفكر دائماً بأمي، بحكمتها الغريبة وخوفها المستمر الغامض من كل ما يحدث حولنا وبعدم ثقتها المطلقة بالحياة الدائرة، وبهذه الأشياء التي تتكاثر حولنا وفوقنا وتغير لون الأرض والجدران والضوء والظل، أشياء يابسة ومكرمشة لا ضرورة واضحة لها.

أمي مسيحية من قرى الناصرة تزوجت قبل والدي وأنجبت، ووالدي مسلم من الجبال تزوج قبلها وأنجب وغلب عليه لقب النصراني بسبب صليب من خشب الزيتون كان يعلقه في رقبته منذ قبل الهجرة أهدته إياه أمي عندما كان يعمل في كروم قريتها قبل أن يتزوجا، وبقي يحمله على صدره بينما حملنا نحن اللقب.

مرة تسلل مع ثلاثة من أصدقائه إلى قريته، عبروا الحدود على بطونهم ومر فوقهم رصاص من الجانبين ولكنهم استمروا في الزحف يوماً وليلة إلى أن وصلوا إلى هناك.

«هناك» لم يجدوا القرية ولم يجدوا البيوت، الطريق فقط كانت واضحة في تلك المساحة، وكان الصبّار، صبار في كل مكان، الصبار يغطي كل شيء، ثمة حجارة مبعثرة أيضاً، حجارة كبيرة منقوشة، وجذوع لأشجار تم اقتلاعها، جثث الأشجار كانت تغطي السفح وتتدحرج في المنحدرات، وكانت هناك شجرة رمان وحيدة استطاع أن يتذكرها واستطاعت أن تظل، ربما لأنه كان يتذكرها بشدة من مكانه بيننا.

ملأ عبه بالرمان وعاد مع الرجال الثلاثة، كان الرمان ينعصر على صدره وملابسه وهو يزحف، كان الرمان يتدحرج على الطريق الضيق الملتف.

ومن بعيد عندما أصبحوا في قاع الانحدار كان الصبّار يبدو مثل ثمرة خضراء عظيمة ومنكشة تتدلى من أعلى الطريق النحيل، فيما بعد استمر يسأل نفسه ويسألنا أيضاً:

لماذا بقي الطريق فقط؟

وكان يرغب أن يجعل من ذاك السؤال معجزة أو فلسفة أو رسالة مقصودة ليؤمن بها.

عندما وصل في الليل كان منقعاً بماء الرمان وكان خائفاً ومبتهجاً، وقف مبللاً وفي يده ثمرة واحدة سليمة لم تخدش وكان يكاد يبكي عندما قال:

إنها من «هناك».

وضعها على ظهر الطاولة الوحيدة، وبقيت هنا، لم نستطع أن نجرحها، كنا خائفين أن نؤلمها أو نؤلمه هو، كانت أمامنا تتنفس وتتذكر على تلك الطاولة القصيرة، السكين التي أحضرها شقيقي الأصغر نسيناها إلى جوارها، لم نتمكن أن نتقدم أكثر من ذلك، كانت حية تماماً وكانت ضرورية بالنسبة له، كانت الوسيلة الوحيدة التي امتلكها لنصدقه، لنصدق كل تلك الروايات التي كان يسوقها لنا عن بيته وقريته وأرضه.

بيتنا وقريتنا وأرضنا.

هو الذي لم يحمل معه صورة أو مفتاح أو إشارة من تلك الأشياء، باستثناء صليب من خشب الزيتون علقه على صدره، كانت ضرورية له ليستمر في تذكره، محطة صغيرة جداً ولكنها أساسية ليتمكن من مواصلة المشي، ربما لهذا أيضاً لم تقترب أمي منها أكثر من اقترابنا نحن، لعلها كانت تخشى أن يعود مرة ثانية إلى هناك إذا استيقظ ذات صباح ولم يجدها على الطاولة.

أما «هي» فقد بدا أنها كانت قادمة إلى هذا المكان بالضبط، كانت تعرف أيضاً، كانت مظلومة وخائفة وبعيدة مثلنا.

في الليل بعد أن ينام الجميع ويهدأ أبي وأمي، كنت أسمعها تتنفس على الطاولة، وبمجرد أن أغمض عيني كنت أشعر بحركة بعيدة ومبصرة بين ألواح الصبار «هناك»، رؤوس الناس والمئذنة نوافذ البيوت والشرفات بأصص الزهور تنبع من بين ألواح الصبار الكثيفة وتبدأ الهبوط بحذر عبر تلك الطريق الملتفة الموصوفة، نحونا.

منذ تلك الليلة أخذت نبرته تختلف، وأصبح الكلام يمتلئ بالتفاصيل، تفاصيل كل شيء، البيوت والنباتات، أسماء الأولاد وأسماء البنات وأعمارهم، روائح الطعام في البيوت وأنواع الزهور في الشرفات، الأعراس والصور المعلّقة على الجدران والليل، الليل صيفاً والليل شتاءً، كان يجلس ويخرج تلك الأشياء من تحت ألواح الصبار ويمسح عنها الغبار والشوك والزمن بعناية شديدة.

لقد تغيرت الحكاية منذ الآن وانتهى دخوله الحذر المتردد إليها، أصبح أكثر حرية وأصبحت الأشياء أكثر رغبة في البقاء وفي أن يتم تذكرها وحراستها، كانت تتعاون معه على إعادة الوصف والرسم وتأكيده، كل هذا يحدث بينما ثمرة الرمان تراقبه برضى عميق من مكانها على الطاولة وقريباً منها السكين المهملة التي أحضرها شقيقي الأصغر.

أحياناً كنت ألمحهما وهما يسترقان النظر نحو بعضهما البعض ويتبادلان الرضا.

ثم أصبح أكثر اقتناعاً بالأشياء التي تحدث له ولنا، وبدا أكثر قدرة على الوصف وإحضار ذلك الأثاث المنسي تحت غابة الصبار وتكديسه في الغرفتين حيث نتنفس.

وبدأ البيت يمتلئ بذاكرته من جديد والأغراض الجديدة تتكدّس على الأرضية وتتعلق في الجدران والأبواب والسقف وتتدلى فوقنا، بينما نحن نواصل تعثرنا في كل هذا وتصطدم وجوهنا ورؤوسنا بكل شيء، «وهي» على الطاولة تراقب وتواصل تعاونها المثمر معه على إحضار وحمل ما يستطيعان جره من تلك البئر العميقة التي جمعتهما.

وفوقها تماماً كان «مار جرجس» الذي حملته أمي من كنيستها يمد نحوها ونحونا حكايات وذاكرة وأصوات بينما نحن في الداخل نحدّق في كل هذا ونجلس على أكوام الأشياء وفوقنا تتدلى قلادات وعناقيد وسلال يابسة مكرمشة.

وبعيداً كان الصبار يفرد ألواحه ويرتفع مثل بحيرة أشواك خضراء على تلك الهضبة بينما الطريق يلمع وينحدر ضيق وملتوي وحذر.

وفي الليل عندما كانت حبة الرمان تبدأ بالتنفس ويهبط مار جرجس عن حصانه ليستريح، تاركاً التنين ينزف ويفكك الحسيني عن صدره حزام الرصاص، كانت مئات الرؤوس والعيون والنوافذ والشرفات والمئذنة تطل من بين ألواح الصبار وتنحدر في الطريق متجهة نحو بيتنا.

غيابه

قالت

: كنا وحدنا، وكان وحيداً يواصل ابتعاده كل يوم، وكنت وحيدة أهش بيدي الصمت الذي ينادي بعضه ويتجه نحو بيتنا الوحيد.

كنت أعلم أنه هو الذي يرش الماء كل فجر، قبل ذهابه للمسجد، على شتلات الريحان الثلاث.

... ثم بدأ يختفي ويذهب ولم يعد ممكناً لي أن أقاوم كل ذلك، ابتعاده المستمر وتراكم الصمت في كل مكان على العتبة والمصطبة والنافذة والملابس والفراش، والكلام والهواء، فتوقفت عن ذلك تماماً.

في تلك الصبيحة لملمت ثوبي الممزق حتى الخصر، كما أخبرتك، وطرقت البوابة الثالثة إلى اليمين، بوابتكم، لأخبرك أنه مات، وكنت أرغب أن تحزن من أجل ذلك.

كان ذلك ضرورياً بالنسبة لي.

ضرورياً جداً.

لم يعد ضروريا

قلت

: كانت لا تزال مستلقية على ظهرها وعيناها مغمضتان، احمرار خفيف عبر في وجهها فمنحها عمراً غامضاً، بدا وجهها غريباً ومبتعداً وغير قابل لأن يدرك، ذهاب لا يفي بشيء، ولا يؤدي إلى وصول.

بهت التوتر الذي كان يبرز فكيها وانسابت بشرتها سمراء غامقة، ومثل وتر مفكك لمع نحاس في أعلى الوجنتين فقلت وسمعتني:

ستبقي جميلة مئة عام.

زحفت دون أن تغير من استلقائها حتى استندت إلى الحائط، انسدل شعرها أثناء ذلك أسود عجيباً فغطى نصف وجهها، ولبرهة مثل فرس بيضاء مفاجئة لمعت خصلة بيضاء كاملة ثم توارت.

كانت صامتة وبعيدة ومستندة إلى الحائط وكنت في الزاوية وحيداً وخائفاً، كانت تنظر ولا تراني وكنت لا أنظر وأراها، وكنا وحدنا في بيت الحاج، بيتها، بيته.

قالت:

لماذا ارتديت ملابسك، تستطيع أن تنام حتى التسابيح، سأوقظك.

ثمة شعاع داعر يحيط بصوتها الآن ويحيط بي وبالغرفة وبظهيرة الشاي وليلة الخاتم، وكنت خائفاً من عريها ومن أننا وحدنا، وكنت أستطيع أن أقبل كل شيء، بدون رغبات، خاوياً ومعلقاً في ذلك الشعاع، ومنتزعاً من كل ما يحيط بي سواها.

قلت: نامي أنت، استريحي، ليس بي رغبة للنوم.

تحركت دون أن تنهض، حبت على أربع نحو الفراش ورتبته كما هو ثم تمددت تاركة لي المساحة الأكبر.

قالت كمن تذكرت:

الشاي، لقد وضعته على النافذة، خذه في طريقك.

قلت من مكاني:

لا ضرورة لذلك، لم يعد ضرورياً.

: لماذا لا تنام؟

ثم تذكرت من جديد:

لا تنس الشاي، من أجل الصباح.

قلت:

لم يكن لي، أمي هي طلبته، وقد ماتت الآن،

قالت دون أن تسمعني.

: لا تنساه، ستحتاجه.

قلت دون أن أراها:

لا أظن، أخبرتك لم يعد ضرورياً.

: ...

نامت، صدرها يعلو ويهبط بانتظام، كانت في أقصى غرف النوم، خيط من اللعاب سال من زاوية فمها وبلل المخدة، ثمة ضوء على السقف، ضوء قادم من نومها من مكانها هناك، حيث هي الآن وينعكس على أعواد القصب في السقف، الأعواد المتلاصقة المشدودة بقوة إلى بعضها البعض بخيوط خضراء جيشية متينة، قبل هذه الليلة بسنوات كنا هنا «أنا» و«هو» وآخرون، وكان الحاج.

كنا نبني البيت، كان ذلك بعد زواجها من الحاج بأسابيع وكان الحاج قد قرر أن ينتقل من بيته قرب النهر إلى هنا، وكانت هي أكبر منا تعد الشاي وتحمله للكبار تحت السنديانة وللعمال على السقف ولا تمر بنا هو وأنا حيث كنا تحت قبعات ورق عجيبة صنعناها بأيدينا من ورق الجرائد لنتقي الشمس، كنا على الأرض، كلانا، يسحب كل منا سكينه على طول جسد القصبة وعندما تصل حافة السكين إلى العقد حيث يتبرعم غصن جديد تطير القشرة وتنساب السكين نحو عقدة جديدة بينما نحن ندورها بين أصابعنا بخفة والسكين تنزلق على الجسد الأملس.

كنا نتسابق بدون جدوى، وكان يسبقني دائماً، وبسرعة كانت تكبر كومة القصب إلى جانبه، ولكن الحاج المجاور دائماً كان يقرب المسافة بيننا فيمتدح عملي ويمتدح همته، كان يشير إلى كومتي الصغيرة النظيفة تماماً ويقول وهو يضحك من أعماق قلبه:

هذه للغرفة.

ثم يشير إلى كومته الكبيرة الأقل لمعاناً:

... وهذه للمطبخ.

ويضحك من جديد فيضحك الكبار تحت السنديانة ويضحك العمال فوق السقف وتبتسم «هي»، حيثما كانت، ونرضى «أنا» و«هو»، ثم يخلط الحاج الكومتين ويناولهما لمن سيرفعهما للسقف حيث يثبت العمال جذوع الأشجار المستقيمة كجسور ثم يرصفون القصب ويشدونه قصبة قصبة بخيوط خضراء متينة قصيرة كحصيرة سميكة ومتماسكة تتقدّم رويداً، رويداً.

كنت أواصل التحديق في الكومة الصاعدة إلى أعلى وأميز من مكاني كل الأرض تحت قبعة الورق العجيبة قصباتي الأكثر لمعاناً فأرضى وأتمنى، بينما هو يغني بأعلى صوته غناءً ماجناً فيستزيده الشيوخ تحت السنديانة ويردد معه العمال فوق السقف وتخجل هي، حيثما كانت، ويضحك الحاج ويتحرك في كل مكان على الأرض وعلى السلم ويظهر رأسه على حافة السقف يؤنب ويرشد ويذم ويمدح، ثم يظهر من جديد تحت السنديانة بين الشيوخ وهو يرشف شايه بصوت مسموع.

كان كل شيء في طريقه للاكتمال، كنت قادماً لأموت وكان الحاج قد مات وكان هو قد غرق في النهر منذ زمن وهي نائمة بينما كنت أحدّق في السقف وأميز من مكاني أعواد القصب التي قشرناها في ذلك النهار القائظ، أتذكر وأنا أنظر إلى الضوء القادم من نومها، الضوء الذي ينعكس على القصب في السقف، وأنا أفككها قصبة قصبة وأعيدها عبر السلم إلى أيدينا الممسكة بالسكاكين القصيرة، وهناك سأعرف:

هو

أنا

هو

هو

هو

أنا

هو

هو

هو

هو

أنا

أنا

هو...

بينما تختفي الكراسي الخمسة التي يجلس عليها الكهول تحت السنديانة، تتفكك في ضباب كيف ينبع من الأرض تحتهم، ثم يتفكك جلوسهم ولا يبقى من كل شيء إلا أصواتهم وصوت ارتشاف الشاي القادم من خمس نقاط غير مرئية في الضباب، وفي الأعلى يتضاعف الضباب ويتفكك العمل على السقف ودرجات السلم الخشبي الصاعد إلى هناك، فقط ثلاثة أجساد مضيئة في ذلك الزمن.

«هو» و«أنا» يحيط بنا غياب الآخرين ونحن ننحني على قصبتين طويلتين وكأننا نجدّف في ماء أبيض.

وفي أقصى الزمن قريباً منا «هناك» يضيء جسدها الجالس بانتظار اكتمال موتنا.

أنا، هو، هو، هو، أنا، أنا، هو، هو.

تونس
1993-1992

DISCRIBING THE PAST

روايات

وصف الماضي

فقط لأتأكّد، نظرت فلمعت حول المعصم خمس أصابع، وأضاء خاتم رخيص مطليّ بالفضّة، ثمّ سمعت صوتي في العتمة هناك مشروخًا وخائفًا ووحيدًا: «والله جئنا نتفرّج عليك وأنت نائمة».

ISBN 978-6589-09-560-6

786589 095606

الأهلية

الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بنّاية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2013
الغلاف: ستوديو ® ☎ 95297109 7 00962